شؤون عربيّة / عُمان

الشعب يقاوم حرب التجويع والابادة

تحقيق نازك / تصوير جاسم الزبيدي

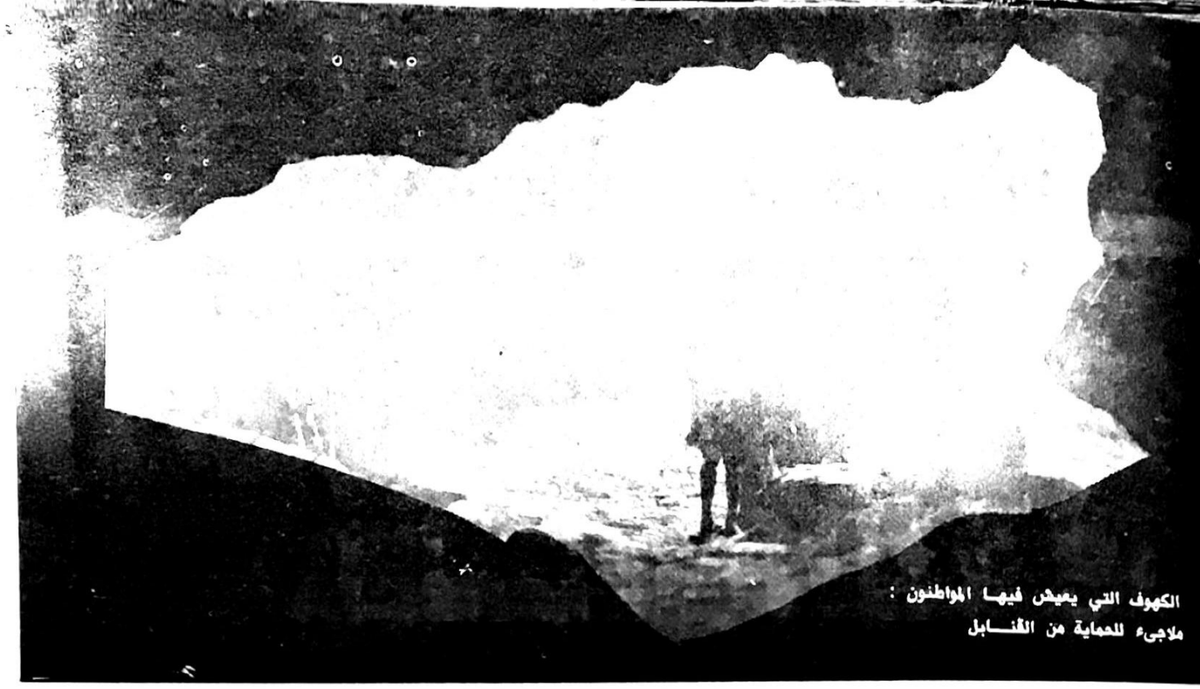

الكهوف التي يعيش فيها المواطنون : ملاجىء للحماية من القنابل

لرعاية الصحية ... رغم ضعف الامكانات

« الهدف » تواصل جولتها في المناطق العمانية المحررة وتتوغل في الريف الظفاري حيث يقاوم الشعب ببسالة اسطورية حرب التجويع والابادة التي يشنها ضدهم نظام قابوس وحماته الايرانيون . المدن تحوطها الاسوار المثلثة والطائرات تلاحق الفلاحين في الريف الشاسع لتقضي على كل مصادر الحياة ولارغامهم على اللجوء الى المدن المغلقة بالاسوار .

ومع ذلك ، فالجبهة الشعبية لتحرير عمان تقوم بجهود خارقة لحماية المواطنين وتقديم الرعاية الصحية لهم وتعليمهم وتغذيتهم و ... خلق مقاتلين جدد . وتستمر المعارك حتى تتهدم الاسوار .

أبرز سمات الثورة العمانية هو التلاحم الرائع بين المقاتلين والمواطنين ، وقد تحاشى الثوار منذ انطلاق الثورة ان يتحولوا الى نخبة . عملوا على التوجه الى الجماهير واستقطابها في صفوف الثورة مقاتلين واعضاء ميليشيا ، ودفعوا كل فرد الى القيام بدوره مهما كان صغيرا . وحتى الاطفال لهم دور ، وان كان غير منظم ، في حين لعبت المرأة دورا هاما رغم عفوية انجذابها للثورة .

وقد يكون لطبيعة المجتمع الريفي في عمان دور في ذلك ، لكنه يظل دورا ثانويا ، وتظل الانجازات التي حققتها الثورة للجماهير هي الحاسمة والمؤثرة .

انطلقت الثورة العمانية المسلحة بقيادة الجبهة الشعبية لتحرير عمان في الريف الظفاري الذي عاش طويلا يعاني من اهمال السلطة العشائرية الرجعية في مسقط ، ورغم ان عمان كلها كانت تخضع لسياسة التجهيل والتجويع الا ان معاناة الريف من آثار هذه السياسة كانت افدح ، فقد ظل معزولا عن المدن المحاطة بالاسوار والمغلقة في وجه أبناء الريف ، وبالطبع محروما من أية عناية صحية ، اما التعليم فقد كانت توجد حتى السبعينات مدرستان ابتدائيتان فقط في كل عمان ، واحدة في مسقط والاخرى في صلالة ، وهما وقف على ابناء العائلة

الحاكمة والاقطاعيين والمتنفذين والمقربين . أما الريف فقد كانت نسبة الامية فيه تتجاوز ٩٩ بالمئة .

الارض ... ملكية عامة

لكن الريف الظفاري كان يتميز بميزات أخرى عملت على تمهيد الطريق للثورة لكي تنتشر في صفوفه بسرعة أكبر ، فالريف الجبلي في عمان يتميز ببنية اجتماعية خاصة تختلف عن سائر مناطق عمان والخليج العربي ، اذ ان الريف يعتمد اعتمادا اساسيا على الرعي وليست هناك ملكية خاصة للارض لان وسائل الزراعة التي لا تتعدى موسما واحدا هو موسم الامطار ـ متخلفة ولا تتعدى بذر البذور وانتظار موسم الحصاد ، وهي بذلك لا تتطلب جهدا يفرض علاقات انتاج من نوع الاستئجار او الاستخدام ، والارض مشاعة ، فاينما وجد الرعاة انفسهم في موسم الامطار ، يزرعون الارض التي يتواجدون عليها .

الملكية الوحيدة هي ملكية الحيوانات وهي عامة وفي متناول الجميع ، اذ يندر ان توجد عائلة لا تمتلك مجموعة من الحيوانات تعتمد عليها في معيشتها ، والعائلة بمجموعها تساهم في الرعي واستثمار الحيوانات ، وهي بذلك لا تحتاج ايضا الى اي عنصر من خارجها تستأجره او تستخدمه .

وهذا الواقع الاقتصادي افرز علاقات اجتماعية صحية نسبيا ، فليس هناك اقطاع ولا اضطهاد بل تكافؤ نسبي يسمح بعلاقات اجتماعية متكافئة ومقبولة ، ولنأخذ مثلا واحدا للتدليل على ذلك ، وهو موقع المرأة في المجتمع الظفاري ، فهي تتميز عن نساء الخليج العربي بأنها تتمتع بمنزلة اجتماعية مبنية على اساس واقعها الاقتصادي ، فهي تملك كما يملك الرجل واحيانا اكثر منه ، وتساهم في الزراعة والانتاج ، ولذا فهي متحررة من عادات كثيرة تعاني منها المرأة في المدن كالحجاب والغيبيات ، والمرأة العمانية تخالط الرجال وتغيب عن البيت وتستقبل الضيوف .

وهكذا جاءت الثورة ضمن اوضاع متخلفة بالنسبة لاحتياجات الانسان وحقوقه في الحياة ، لكنه ملائم لانطلاقها وتعمقها في صفوف هذه الجماهير .

واتجهت الثورة فورا الى معالجة ظروف التخلف الذي تعاني منه جماهير الريف ، وحققت جملة انجازات استطاعت من خلالها ان تشد اليها المواطنين وترتفع بمستوى وعيهم ضمانة لاستمرار التفافهم حول الثورة ، ولكي يتعدى كونه تأييدا عاطفيا للثورة وتؤجه الانتصارات العسكرية فقط .

وكنتيجة لتوجه الثورة الجاد التف حولها السكان وبادلوها العطاء ، وخلال فترة وجيزة صار للمواطنين دور بارز في العديد من أوجه نشاط الثورة ، وصاروا يؤمنون تنقل الثوار ونقل مؤنهم وذخيرتهم ، وكذلك الاتصالات والمراسلات ، ورصد تحركات العدو والاستطلاع ، كما انهم كانوا المورد الرئيسي للمواد الغذائية التي يحتاجها الثوار . وحين كانت الثورة تمر بوضع مالي صعب كان المواطنون يتبرعون لها بالماشية كل حسب استطاعته ودون مقابل .

فرض الحصار على الريف

وادرك نظام قابوس خطورة الوضع وضرورة ضربه قبل ان يستفحل اكثر ، فبدأ يخطط لفك هذا التلاحم بين الثورة والجماهير ، وانتهج اول الامر اسلوبا غير مباشر تمشيا مع السياسة « الحضارية » التي جاء بها قابوس بعد خلعه لوالده سعيد بن تيمور ، فبدأ باغراء المواطنين على الاتجاه الى المدن وترك الريف ، فبث عملاءه يساومونهم على ماشيتهم ويعرضون عليهم اسعارا مضاعفة بالمقارنة بالاسعار العادية التي تشتري بها الثورة ، في محاولة منهم لتجميع المال في ايدي المواطن وسلبه اداة انتاجه الوحيدة (الحيوانات) واغرائه على النزول الى المدينة ، وهكذا يتم تفريغ الريف وعزل الثورة عن المواطن ، واستنزاف اقتصاد الثورة ان هي عملت على المزايدة على اسعار النظام .

وحين لم ينفع هذا المخطط ، لجأ الى الحصار الاقتصادي ، فمنع خروج أية مادة غذائية من المدن الى الريف ، وبالطبع فان سكان الريف يعتمدون كليا على المدينة حيث يبيعون ماشيتهم ومنتجاتها ويشترون المواد الغذائية اللازمة وخاصة السكر والشاي الذي يعتبر مادة اساسية لا يمكن الاستغناء عنها بالنسبة للمواطنين في الريف .

وقد عانى الريف كثيرا من هذا الحصار ، فالمدن مسورة بثلاثة اسوار متتالية وعلى بوابتها يقف جنود قابوس يفتشون المواطنين الخارجين تماما كما يفتش عن المخدرات او الاحجار الكريمة او العملة الصعبة ، واي غرام من السكر يجدونه مع أي مواطن ينثرونه على الرمال ، وليس هذا فقط ، بل ومنعوا كل المواد السكرية ، من الوصول الى الريف بما في ذلك الدبس والحلويات المصنعة ، خشية